وإياك أنْ تتغلَّب عليك شبهة أنك لا ترى الله ، فإنك إنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك ، واعلم أن عملك محسوب عليك ، وإنْ كان في صخرة صماء ضيقة ، أو في سماء ، أو في أرض شاسعة .

ويؤكد هذه المسألة قوله تعالى في الحديث القدسي : « يا عبادي : إنْ كنتم تعتقدون أني لا أراكم فالخلل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أني أراكم ، فلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم ؟ »[1] .

بعد ذلك يدخل لقمان في وعظه لولده مجال التكليف ، فيقول له :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾

هذه مسائل أربع بدأها لقمان بإقامة الصلاة ، والصلاة هي الركن الأول بعد أنْ تشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وعلمنا أن الصلاة لأهميتها فُرِضت بالمباشرة ، ولأهميتها جُعلت ملازمة للمؤمن لا تسقط عنه بحال ، أما بقية الأركان فقد تَسقط عنك لسبب أو لآخر ، كالصوم والزكاة والحج ، فإذا سقطت عنك هذه الأركان لم يَبْق معك إلا الشهادتان والصلاة ؛ لذلك جعلها النبي ﷺ عماد الدين[2] .

---

(١) ثبتت جملة من هذا الحديث على لسان بعض العارفين ، حيث جاء في حلية الأولياء (٨/١٤٢) أن رجلاً قال لوهيب بن الورد : عظني . قال : اتق الله أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

(٢) حديث : « الصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » . قال الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (١٤٢/١) : « رواه البيهقي في الشُّعَب بسند ضعفه من حديث عمر » وقال الملا علي القاري في « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح في مشكل الوسيط : إنه غير معروف » .

ولذلك بدأ بها لقمان ﴿يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ .. (١٧)﴾ [لقمان] لأنها استدامة إعلان الولاء لله تعالى خمس مرات فى اليوم والليلة ، فحين يناديك ربك (الله أكبر) فلا ينبغى أن تنشغل بمخلوق عن نداء الخالق ، وإلا فما موقف الأب مثلاً حين ينادى ولده فلا يجيبه ؟ فاحذر إذا ناداك ربك ألا تجيب .

ثم تأمل النداء للصلاة الذى اهتدتْ إليه الفطرة البشرية السليمة ، واقرّه سيدنا رسول الله : الله أكبر الله أكبر ، يعنى أكبر من كل ما يشغلك عنه ، فإياك أن تعتذر بالعمل فى زراعة أو صناعة أو تجارة عن إقامة الصلاة .

وقد ناقشتُ أحد أطباء الجراحة فى هذه المسألة ، فقال : كيف أترك عملية جراحية من أجل الصلاة ؟ فقلت له : بالله لو اضطررتَ لقضاء الحاجة تذهب أم لا ؟ فضحك وقال : أذهب ، فقلت : فالصلاة أوْلَى ، ولا تعتقد أن الله تعالى يُكلِّف العبد تكليفاً ، ثم يضنّ عليه باتساع الزمن له ، بدليل أنه تعالى يراعى وقت العبد ومصالحه وإمكاناته ، ففى السفر مثلاً يشرع لك الجمع والقصر .

فبإمكانك أنْ تُوفِّق صلاتك حسب وقتك المتاح لك ، إما بجمع التقديم أو التأخير ، وكم يتسع وقتك ويخلو من مشغولية العبادة إذا جمعتَ الظهر والعصر جمْعَ تقديم ، والمغرب والعشاء جَمْع تأخير فى آخر وقت العشاء ؟ أو حين تجمع الظهر والعصر جمعَ تأخير ، فتصليهما قبل المغرب ، ثم تصلى المغرب والعشاء جمع تقديم ؟

إذن : المسألة فيها سعة ، ولا حجة لأحد فى تَرْك الصلاة بالذات ، أما الذين يقولون فى مثل هذه الأمور ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا .. (٢٨٦)﴾ [البقرة] وأن هذا ليس فى وُسْعى .. فنقول لهم :

لا ينبغي أنْ تجعل وُسْعك هو الحكم ، إنما التكليف هو الحكم في الوُسْع ، وما دام ربك - عز وجل - قد كلَّفك فقد علم سبحانه وُسْعك وكلَّفك على قدره بدليل ما شرعه لك من رُخَص إذا خرجتْ العبادة عن الوُسْع .

وقال ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ .. (١٧)﴾ [لقمان] لأن الصلاة أول اكتمال في الإجماع لمنهج الله ، وبها يكتمل إيمان الإنسان في ذاته ، وسبق أن قلنا : إن هناك فرقاً بين أركان الإسلام وأركان المسلم ، أركان الإسلام هي الخمس المعروفة ، أمَّا أركان المسلم فهي الملازمة له التي لا تسقط عنه بحال ، وهي الشهادتان والصلاة ، وإنْ كان على المسلم أنْ يؤمن بها جميعاً ، لكن في العمل قد تسقط عنه عدا الصلاة والشهادتين .

ثم يبين لقمان لولده : أن الإيمان لا يقف عند حدِّ الاستجابة لهذين الركنين الأساسيين ، إنما من الإيمان ومن كمال الإيمان أنْ تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، فيقول له : ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١٧)﴾ [لقمان] فانشغل بعد كمالك بإقامة الصلاة ، بأنْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فبالصلاة كَمُلْتَ في ذاتك ، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنقل الكمال إلى الغير ، وفي ذلك كمال الإيمان .

وأنت حين تأمر بالمعروف ، وحين تنهى عن المنكر لا تظن أنك تتصدَّق على الآخرين ، إنما تؤدي عملاً يعود نفعه عليك ، فبه تجد سعة الراحة في الإيمان ، وتجد الطمأنينة والراحة الذاتية ؛ لأنك أديْتَ التكاليف في حين قصَّر غيرك وتخاذل .

ولا شك أن في التزام غيرك وفي سيره على منهج الله راحة لك أنت أيضاً ، وإلا فالمجتمع كله يَشْقَى بهذه الفئة القليلة الخارجة عن منهج الله .

ومن إعزاز العلم أنك لا تنتفع به الانتفاع الكامل إلا إذا عدَّيْته للغير ، فإنْ كتمته انتفع الآخرون بخيرك ، وشقيتَ أنت بشرِّهم . إذن : لا تنتفع بخير غيرك إلا حين تؤدى هذه الفريضة ، فتأمر غيرك بالمعروف ، وتنهاه عن المنكر ، وتحب لهم ما تحب لنفسك ، وبذلك تنال الحظين ، حظك عند الله لأنك أديْتَ ، وحظك عند الناس لأنك في مجتمع متكامل الإيمان ينفعك ولا يضرك .

ولك هنا أن تلحظ أن هذه الآية لم تقرن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة كعادة الآيات ، فغالباً ما نقرأ : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٤٣)﴾ [البقرة]

وحين نستقرىء كلمة الزكاة في القرآن الكريم نجد أنها وردت اثنتين وثلاثين مرة ، اثنتان منها ليستا في معنى زكاة المال المعروفة النماء العام إنما بمعنى التطهر ، وذلك في قوله تعالى في قصة الخضر وموسى عليهما السلام : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ .. (٧٤)﴾ [الكهف]

ثم قوله تعالى : ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ [الكهف]

والمعنى : طهرناهم حينما رفعنا عنهم باباً من أبواب الفتنة في دين الله .

والموضع الآخر في قوله تعالى : ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً .. (١٣)﴾ [مريم] فالمعنى : وهبنا لمريم شيئاً نُزكيها به ؛ ذلك لأن الزكاة

أول ما تتعدى تتعدَّى من واجد لمعدم ، ومريم لم تتزوج فهى مُقدَّمة فى هذه الناحية ؛ لذلك وهبها الله النماء الخاص من ناحية أخرى حين نفخ فيها الروح من عنده تعالى .

وفى موضع واحد ، جاءت الزكاة بمعنى زكاة المال ، لكن غير مقرونة بالصلاة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾ [الروم]

وفى هذه الآية قال لقمان لولده : ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ .. (١٧)﴾ [لقمان] ولم يقل : وآت الزكاة ، فلماذا ؟

ينبغى أن نشير إلى أن القرآن جمع بين الصلاة والزكاة ؛ لأن الصلاة فيها تضحية بالوقت ، والوقت زمن العمل ، والعمل وسيلة الكسب والمال ، إذن : ساعة تصلى فقد ضحَّيْتَ بالوقت الذى هو أصل المال ، فكأن فى الصلاة تصدقت بمائة فى المائة من المال المكتسب فى هذا الوقت ، أمّا فى الزكاة فأنت تتصدَّق بالعُشْر ، أو نصف العشر ، أو رُبْع العشر ، ويبقى لك معظم كسبك ، فالواقع أن الزكاة فى الصلاة أكبر وأبلغ من الزكاة نفسها .

إذن : لما كانت الزكاة فى كل منهما ، قرن القرآن بينهما إلا فى هذا الموضع ، ولما تتأمله تجده من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالقرآن يحكى هذه الوصايا عن لقمان لولده ، ولنا فيه ملحظان :

الأول : أن الله تعالى لم يكلِّف العبد إلا بعد سنِّ البلوغ إلا فى

الصلاة ، وجعل هذا التكليف مُوجهاً إلى الوالد أو ولى الأمر ، فأناب أن يكلف ولده بالصلاة ، وأن يعاقبه إنْ أهمل في أدائها ، ذلك ليربى عند ولده الدُّرْبة على الصلاة ، بحيث يأتي سِنّ التكليف ، وقد ألفها الولد وتعوَّد عليها ، فهي عبادة تحتاج في البداية إلى مران وأخذ وردٍّ ، وهذا أنسب للسنِّ المبكرة .

والوالد يُكلِّف ولده على اعتبار أنه الموجد الثاني له ، والسبب المباشر في وجوده ، وكأن الله تعالى يقول : أنا الموجد لكم جميعاً وقد وكَّلتك في أنْ تكلِّف ولدك ؛ لأن معروفك ظاهر عنده ، وأياديك عليه كثيرة ، فأنت القائم بمصالحه المُلبِّى لرغباته ، فإنْ أمرته قَبِل منك وأطاعك ، فهي طاعة بثمنها .

وطالما وكلتك في التكليف فطبيعي أنْ أُوكِّلك في العقوبة ، فإنْ حدث تقصير في هذه المسألة فالمخالفة منك ، لا من الولد ؛ لأنني لم أكلِّفه إنما كلَّفْتُك أنت .

لذلك بدأ لقمان أوامره لولده بإقامة الصلاة ، لأنه مُكلَّف بهذا الأمر ، فولده ما يزال صغيراً بدليل قوله ﴿ يَٰبُنَيَّ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان] فالتكليف هنا من الوالد ، فإنْ كان الولد بالغاً حال هذا الأمر فالمعنى : لاحظ التكليف من الله بإقامة الصلاة .

أما الزكاة ، وهي تكليف من الله أيضاً فلم يذكرها هنا - وهذه من حكمة لقمان ودقَّة تعبيره ، وقد حكاها لنا القرآن الكريم لنأخذ منها مبادىء نعيش بها .

ثانياً : إنْ كلَّفه بالزكاة فقال : أقم الصلاة وآت الزكاة فقد أثبت لولده ملكية ، ومعروف أن الولد لا ملكيةَ له في وجود والده ، بدليل

قول الرسول ﷺ : « أنت ومالك لأبيك »[1] وذكرنا أن لقمان لما علم بموت أبيه قال : إذن ملكتُ أمرى[2] فأمره ليس ملْكاً له فى حياة أبيه ؛ لذلك لم يأمر ولده بالزكاة ، فالزكاة فى ذمته هو ، لا فى ذمة ولده .

وتتأكد لدينا هذه المسألة حين نقرأ قول الله تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

فالله تعالى رفع عنَّا الحرج أنْ نأكل من هذه البيوت ، ونلحظ أن الآية ذكرتْ الأقارب عدا الأبناء ، وكان الترتيب المنطقى أن يقول بعد أمهاتكم : أو بيوت أبنائكم ، فلماذا لم يذكر هنا بيوت الأبناء ؟ قالوا : لأنها داخلة فى قوله : بيوتكم ، فبيت الابن هو بيت الأب ، والولد وما ملكتْ يداه ملْكٌ لأبيه .

ثم يقول لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ .. (١٧)﴾ [لقمان]

---

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إن أبى اجتاح مالى ، فقال : « أنت ومالك لأبيك » وقال رسول الله ﷺ : « إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من أموالهم » أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٢٩٢) وأحمد فى مسنده (١٧٩/١) . واللفظ لابن ماجه .

(٢) أخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد عن عبد الله بن دينار : إن لقمان قدم من سفر فلقيه غلام فى الطريق فقال : ما فعل أبى ؟ قال : مات . قال : الحمد لله ملكت أمرى . [الدر المنثور ٥١٩/٦] .

الصبر : حَمْل النفس على التجلُّد للأحداث ، حتى لا تعين الأحداث على نفسك بالجزع ، فأنت أمام الأحداث تحتاج إلى قوة مضاعفة ، فكيف تُضعف نفسك أمامها ؟

والمصيبة تقع إما لك فيها غريم ، أو ليس لك فيها غريم ، فالذي يسقط مثلاً ، فتنكسر ساقه ، أو الذي يفاجئه المرض .. الخ هذه أقدار ساقها الله إليك بلا سبب فلا غريمَ لك فيها ؛ لذلك يجعلها في ميزانك : إما أنْ يعلي بها درجاتك ، وإما أنْ يُكفِّر بها سيئاتك ؛ لذلك كان الكفار يفرحون إذا أصاب المسلمين مصيبة ، كما فرحوا يوم أُحُد ، وقد ردَّ الله عليهم وبيَّن غباءهم ، وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا .. (٥١) ﴾ [التوبة] وتأمل الجار والمجرور (لنا) ولم يقُلْ كتب علينا ، إذن : فالمصيبة في حساب (له) لا (عليه) فلماذا تفرحون في المصيبة تقع بالمسلمين ؟

وأوصى بالصبر بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأن الذي يتعرض لهذين الأمرين لا بُدَّ أن يصيبه سوء من جراء أمره بالمعروف أو نَهْيه عن المنكر ، فإنْ تعرضْتَ للإيذاء فاصبر ؛ لأن هذا الصبر يعطيك جزاءً واسعاً .

وتغيير المنكر له مراحل وضحها النبي ﷺ في قوله : « مَنْ رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده ، فإنْ لم يستطع فبلسانه ، فإنْ لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فالله أمرك أنْ تُغيِّر المنكر ، لكن جعل لك تقدير المسألة ومدى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٩) كتاب الإيمان ، وأحمد في مسنده (٣/٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، والترمذي في سننه (٢١٧٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

إمكانك فيها ، فالدين يـريدك مُصلحاً لكن لا يريد أنْ تلقي بنفسك إلى التهلكة ، فلك أنْ تُغيِّر المنكر بيدكَ فتضـرب وتمنع إذا كان لك ولاية على صاحب المنكر ، كأن يكون ولدك أو أخاك .. إلخ .

فلك أن تضربه مثلاً إنْ رأيتَ سيجارة فى فمه ، أو أنْ تكسر له كأس الخمر إنْ شربها أو تمزق له مثلاً ورق « الكوتشـينة » ، فإنْ لم تكُنْ لك هذه الاسـتطاعـة فيكفى أنْ تُغيِّـر بلسانك إنْ كـانت لديك الكلمـة الطيبـة التى تداوى دون أن تجرح الآخـرين ، ودون أنْ يؤدى النصح إلى فتنة ، فيكون ضرره أكثر من نفعه .

فـإنْ لم يكُنْ فى استطاعـتك هذه أيضـاً ، فليكُنْ تغـييـر المنكر بالقلـب ، فـإنْ رأيتَ منكراً لا تملـك إلا أنّ تقـول: اللهم إنّ هـذا منكر لا يرضيك لكن أيُعَدُّ عمل القلب تغييـراً للمنكر وأنت مطالب بأنْ تُغيِّره بيدك يعنى : إلى ضده ؟ وهل هذه الكلمة تغير من الواقع شيئاً ؟

قالوا : لا يحـدث التغـيير بالقلب إلا إذا كان القـالب تابعاً للقلب ، فـالقلب يشـهـد أنّ هذا منكـر لا يُرضى الله ، والقـالب يسـاند حـتى لا تكون منافقـاً ، فأنت أنكرتَ عليه الفعل ، ولا اسـتطاعة لك على أنْ تمنعه ، ولا أن تنصحه ، فلا أقلُّ من أنْ تعـزله عن حياتك وتقاطعه ، وإلاَّ فكيف تُـغـيِّـر بقلبك إنْ أنكرتَ علـيـه فـعله وأبقـيتَ على وُدِّه ومعاملته ؟

إذن : لا يكون التغيير بالقلب إلا إذا أحسَّ صاحب المنكر أنه فى عزلة ، فـلا تهنئه فى فرح ، ولا تعزيه فى حـزن ، وإنْ كنتَ صاحب تجارة ، فلا تَبِعْ له ولا تشتر منه .. الخ .

ومـا اسـتشرى البـاطل وتبجـح أهل الفسـاد وأهل المنكر إلا لأن الناس يحترمـونهم ويعاملونهم على هذه الحال ، بل ربمـا زاد احترام

الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم .

فالتغيير بالقلب ليس كلمة تقال إنما فعل وموقف ، وقد علّمنا ربنا ـ تبارك وتعالى ـ هذه القضية في قوله سبحانه : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء]

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام]

والنبي ﷺ في قصة الثلاثة[١] الذين خلّفوا بغير عذر في غزوة تبوك ، يُعلّمنا كيف نعزل أصحاب المنكر ، لا بأن نعزلهم في زنزانة كما نفعل الآن ، إنما بأن نعزل المجتمع عنهم ، ليس المجتمع العام فحسب ، بل عن المجتمع الخاص ، وعن أقرب الناس إليه .

وقد تخلف عن هذه الغزوة عدة رجال اعتذروا لرسول الله فقبل علانيتهم وترك سرائرهم لله ، لكن هؤلاء الثلاثة لم يجدوا لأنفسهم عذراً ، ورأوا أنهم لا يستطيعون أنْ يكذبوا على رسول الله ، ولم يحبسهم الرسول ، إنما حبس المجتمع عنهم حتى الأقارب ، فكان الواحد منهم يمشي و (يتمحك) في الناس ليكلمه أحد منهم ، فلا يكلمه أحد ، وكعب بن مالك[٢] يتسوَّر على ابن عمه الحديقة ، ويقول

---

(١) الثلاثة هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع العامري .

(٢) هو : كعب بن مالك بن أبي كعب الأنصاري ، شاعر رسول الله ﷺ ، أمه ليلى بنت زيد من بني سلمة ، كنيته أبو عبد الرحمن ، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها ، ما خلا تبوك ، وتاب الله عليه ، ذهب بصره في آخر حياته . وتوفي عام ٥٠ هـ في خلافة معاوية ، وهو يومئذ ابن ٧٧ عاماً أي أنه ولد ٢٧ ق هـ .

له : تعلم أني أحب الله ورسوله فلا يجيبه . ويصلي بجوار الرسول يلتمس أنْ ينظر إليه ، فلا ينظر إليه[1] .

ولما نجحت هذه المقاطعة على هذا المستوى أعلاها الشرع وتسلسل بها إلى الخصوصيات في البيت ، فعزل هؤلاء الثلاثة عن زوجاتهم ، فأمر كلاً منهن ألاَّ يقربها زوجها إلى أن يحكم الله في أمرهم[2] ، حتى أن واحدة[3] من هؤلاء جاءت لرسول الله وقالت : يا رسول الله ، إن زوجي رجل كهدبة الثوب (يعني : ليست له رغبة في أمر النساء) فأذن لها رسول الله في أن تخدمه على ألاَّ يقربها .

ظل هؤلاء الثلاثة ثلاثين يوماً في هذا الامتحان العام وعشرة أيام في الامتحان الخاص ، ونجح المجتمع العام ، ونجح المجتمع الخاص، وهكذا علَّمنا الشرع كيف نعزل أصحاب المنكر وأهل الجريمة . فعزل

---

(١) يروي لنا كعب بن مالك هذه الأيام العصيبة ، فيقول : « أما هلال بن أمية ومرارة بن الربيعة فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرَّك شفتيه برد السلام أم لا ، ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلتُ على صلاتي نظر إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عني . [صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩] كتاب التوبة .

(٢) جاء رسول من عند رسول الله ﷺ إلى كعب بن مالك يقول له : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها فلا تقربنَّها . (صحيح مسلم حديث ٢٧٦٩) .

(٣) هي : خولة بنت عاصم ، امرأة هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين خلفوا . [قاله ابن حجر في الفتح ٨/١٢١] ويروي مسلم في صحيحه (٢٧٦٩) والبخاري في صحيحه (٤٤١٨) أن امرأة هلال بن أمية جاءت رسول الله ﷺ وقالت : « يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا » .

المجتمع عنهم أبلغ من عزلهم عن المجتمع . لذلك كان وقْع هذه العزلة قاسياً على هؤلاء .

فهذا كعب بن مالك يحكي قصته ويقول : لقد ضاقت بي الأرض على سعتها ، والحق يقول في وصف حالهم : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فلما استوى المجتمع العام والمجتمع الخاص على منهج الله فرَّج الله عن هؤلاء الثلاثة ، ونزل قوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾ [التوبة]

فأسرع أحدهم[1] يبشر كعباً بهذه البشرى فطار كعب فرحاً بها ، وقال : فوالله ما ملكتُ أنْ أخلع عليه ثيابي كلها ، ثم استعير ثياباً أذهب بها إلى رسول الله[2] .

إذن : ينبغي أن نعزل المجتمع كله عن أصحاب المنكر ، لا أن نعزلهم هم في السجون ، لكن مَنْ يضمن لنا استقامة المجتمع في تنفيذ هذه العزلة كما نفذها المجتمع المسلم على عهد رسول الله ؟

نعود إلى ما كنا نتحدث عنه من أن المصيبة إذا كانت قدراً من الله ليس لك فيها غريم ، فإن الصبر عليها هيِّن ، فالأمر بينك وبين ربك ، أما إنْ كان لك في المصيبة غريم كأن يعتدي عليك أحد فيحرق

---

(١) هو : حمزة بن عمرو الأسلمي ، ذكره ابن حجر العسقلاني في الفتح (شرح حديث رقم ٤٤١٨)

(٢) قطعة من حديث كعب بن مالك الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٤٤١٨) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٦٩)

زرعك أو يقتل ولدك ، فهذه تحتاج إلى صبر أشد ، فكلما رأيت غريمك هاجتْ نفسك وغلى الدم في عروقك ، فيحتاج إلى طاقة أكبر ليحمل نفسه على الصبر .

لذلك يقول سبحانه في هذه المسألة : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى] فأكدها باللام ؛ لأنها تحتاج إلى طاقة أكبر من الصبر وضبط النفس حتى لا تتعدى كلما رأيت الغريم . وهذا من المواضع التي وقف عندها المستشرقون يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله .

يقولون : ما الفرق بين قول القرآن ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان] وقوله . ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

ثم أيهما أبلغ من الأخرى ، فإنْ كانت الأولى بليغة فالأخرى غير بليغة .

ونقول في الرد عليهم : كل من الآيتين بليغة في سياقها ، فالتي أُكّدت باللام جاءت في المصيبة التي لك فيها غريم وتحتاج إلى صبر أكبر ، أما الأخرى ففي المصيبة التي ليس لك فيها غريم ، فهي بينك وبين ربك ، والصبر عليها هيِّن يسير .

لذلك ، فالحق سبحانه يعالج هذه المسألة ليُصفّي النفس ويمنع ثورتها ، فيقول : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى] لتقف النفس عند حدِّ الرد بالمثل ، ثم يُرقِّي المسألة ، ويفتح باباً للعفو : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (٤٠) ﴾ [الشورى] وقال في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فحين يبيح لك ربك أنْ تأخذ بحقك تهدأ نفسك ، وربما تتنازل عن هذا الحق بعد أن أصبح في يدك ؛ لذلك كثيراً ما نرى ـ خاصة في صعيد مصر حيث توجد عادة الأخذ بالثأر ـ القاتل يأخذ كفنه على يديه ، ويدخل به على ولي الدم ، ويُسلِّم نفسه إليه ، وعندها لا يملك ولي الدم إلا أن يعفو .

حتى في مسألة القتل والقصاص يجعل الحق سبحانه مجالاً لترقية النفس البشرية وأريحيتها ، بل ويُسمِّي الطرفين إخوة في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. ﴿١٧٨﴾ ﴾ [البقرة]

ففي هذا الجو وفي أثناء ما تسيل الدماء يُحدِّثنا ربنا عن العفو والإحسان والأخوة ، ومعلوم أن هناك فَرْقاً بين أن تأخذ الحق ، وبين أنْ تنفذ أخذ الحق بيدك .

فالله تعالى خالق النفس البشرية ويعلم ما جُبِلَتْ عليه من الغرائز وما تُكنّه من العواطف ، وما يستقر فيها من القيم والمبادىء ، لكنه ـ سبحانه وتعالى ـ لا يبني الحكم على ارتفاع المناهج في الإنسان ، إنما على ضوء هذه الطبيعة التي خلقه عليها ، فليس الخَلْق كلهم على درجة من الورع تدعوهم إلى العفو والصفح ؛ لذلك أعطاك حقَّ الرد بالمثل على مَنْ اعتدى عليك ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى]
وقال ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

ومع ذلك حين تتأمل هذه الآيات تجد أن تنفيذها من الصعوبة بمكان ، فمَنْ لديه القدرة والمقاييس الدقيقة التي تُوقفه عند حدِّ المثلية التي أمر الله بها ؟

وسبق أنْ بيَّنا : أنه إذا اعتدى عليك شخص وضربك مثلاً ، أتستطيع أنْ تضربه مثل ضربته لا تزيد عليها ، لأنك إنْ زدتَ صرْتَ ظالماً ، واقرأ بقية الآية : ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين (٤٠)﴾ [الشورى]

وسبق أنْ ذكرنا قصة المرابي اليهودي الذي اتفق مع مدينه على أنْ يقطع من جسمه رطلاً ، إذا لم يُؤدِّ في الموعد المحدد ، وفعلاً جاء موعد السداد ، ولم يَفِ المدين ، فرفع اليهودي أمره إلى القاضي وأخبره بشرطه - وكان القاضي مُوفَّقاً قد نوَّر الله بصيرته ، فقال لليهودي : نعم لك حقٌّ في أن تُنفذ ما اتفقنا عليه ، وسأعطيك السكين على أنْ تأخذ من المدين رطلاً من لحمه في ضربة واحدة ، بشرط إذا زدتَ عنها أو نقصتَ أخذناه من لحمك .

وعندها انصرف اليهودي ؛ لأن المثلية لا يمكن أن تتحقق ، فكأن الله تعالى بهذا الشرط - شرط المثلية في الردّ - يلفت انتباهك إلى أن العفو أوْلَى بك وأصلح .

إذن : يُحدِّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن العفو وعن الإحسان في المصيبة التي لك فيها غريم ، ويبين لنا أنك إذا أخذتَ حقك الذي قرره لك فقد أرحتَ نفسك ، لكن حرمتها الأجر الذي تكفَّل الله لك به إنْ أنت عفوتَ .

وكان الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يولد من أسباب البغضاء أسباباً للولاء ، فالذي كان من حقك أنْ تقتله ثم عفوتَ عنه أصبحتْ حياته ملْكاً لك ، فهل يفكر لك في سوء بعدها ؟

لذلك يُعلِّمنا ربنا : ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٣٤)﴾ [فصلت]

وأذكر أنني جاءني مَنْ يقول : والله أنا دفعتُ بالتي هي أحسن مع خصمي ، فلم أجده ولياً حميماً كما قال الله تعالى ، فقلت له : عليك أن تراجع نفسك ؛ لأنك ظننتَ أنك دفعتَ بالتي هي أحسن ، لكن الواقع غير ذلك ، ولو دفعتَ بالتي هي أحسن لَصدق الله معك ، ورأيت خَصْمك ولياً حميماً ، إنما أنت تريد أنْ تُجرِّب مع الله والتجربة مع الله شكٌّ .

والنبي ﷺ يُعلِّمنا أنْ نبقى على يقين التوكل سارياً دون أنْ نفكر كيف يحدث ، وقصة الصحابية أم مالك[1] شاهدة على ذلك ، فقد كان عندها غنم تحلب لبنها ، فتصنع مما زاد عن حاجتها وحاجة أولادها زبداً ، وكانت تهدي منه إلى رسول الله في عكة[2] عندها ، فكان أهل بيت رسول الله يُفرغون هذه العكة في آنيتهم ، ثم يعيدونها إليها وهكذا .

حتى قالت أم مالك[3] : والله ما أصبتُ إداماً إلا من هذه العكة ، وكانت كلما احتاجت الإدام أفرغتْ العكة ، فوجدت بها الإدام حتى بعد أن أفرغها أهل بيت الرسول ، لكن خُيِّل لها في يوم من الأيام أنها أسرفت في استعمال هذه العكة ، وظنت أن ما بها من إدام قد نفد ، فأخذتها وعصرتها ، فلم تجد فيها شيئاً ، فظنت أن رسول الله غاضب

---

(١) هي : أم مالك الأنصارية . ذكرها ابن حجر العسقلاني في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٢٧٨/٨) .

(٢) العكة : أصغر من القربة للسمن ، وهو زُقَيْق صغير . [لسان العرب - مادة : عكك] .

(٣) حديث مسلم (٢٢٨٠) عن جابر بن عبد الله أن أم مالك كانت تهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً ، فيأتيها بنوها فيسألون الأُدْم ، وليس عندهم شيء ، فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ ، فتجد فيه سمناً ، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته ، فأتت النبي ﷺ فقال : عصرتيها ؟ قالت : نعم . قال : لو تركتيها ما زال قائماً .

منها ، فذهبت إليه وقصَّتْ عليه هذه المسألة ، فقال لها ﷺ : « أعَصرتيها يا أم مالك ؟ » فقالت : نعم يا رسول الله ، فأخبرها أن التجربة مع الله شكٌ وأنها لو لم تعصرها ولم تظن هذا الظن لبقيتْ العُكَّة على حالها ، وكما تعودت منها(١) .

وتلحظ أن كلمة (أصابك) والمصيبة تدل على أنها واقعة بك ولن تنجو منها ؛ لأنها قدر أرسل إليك بالفعل ، وسيصيبك لا محالة ، والمسألة مسألة وقت إلى أنْ يصلك هذا السهم الذى أطلق عليك ، فإياك أنْ تقول : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، فما سُمِّيت المصيبة بهذا الاسم إلا لأنها صائبتك لا تستطيع أنْ تفرَّ منها . كما يقولون عن الموت : تأكد أنك ستموت ، وعمرك بمقدار أنْ يصلك سهم الموت .

وكلمة ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان] تقول : فلان له عزم ، ونسمع القرآن يقول : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٥٩﴾﴾[آل عمران] العزم : الفرض المقطوع به ، والذى لا مناصَ عنه ، ومنه ما جاء فى قول لقمان لما خيَّره ربه بين أن يكون رسولاً أو حكيماً ، فاختار الراحة وترك الابتلاء ، لكنه قال : يا رب إنْ كانت عزمة منك فسمعاً وطاعة ، يعنى : أمراً مفروضاً ينبغى ألاَّ نحيد عنه .

والعزم يعنى شحن كل طاقات النفس للفعل والقطع به ، فالصلاة على الميت مثلاً لا تُسمَّى عزيمة ؛ لأنها فرض كفاية إنْ فعلها البعض سقطتْ عن الباقين ، على خلاف الصلاة التامة فى السفر مثلاً حيث يعتبرها الإمام أبو حنيفة عزيمة لا رخصة ، فإن أتممت الصلاة فى

(١) قال النووى فى شرحه لصحيح مسلم (١٥/٤٦) : « قال العلماء : الحكمة فى ذلك أن عصرها مضاد للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة وتكلُّف الإحاطة بأسرار حكم الله تعالى وفضله فعوقب فاعله بزواله » .

السفر أسأت[1] ، عملاً بقول النبي ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه »[2] .

والمعنى : لا ترد يد الله المبسوطة لك بالتيسير في الصلاة أثناء السفر .

ثم يعتمد في هذا الرأي على دليل آخر من علم الأصول هو أن الصلاة فُرِضَتْ في الأصل مثنى مثنى ، ثم أقرت في السفر وزيدت في الحضر ، إذن : فصلاة السفر مع الأصل ، فلو أتممتَ الصلاة في السفر أسأتَ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى « تصعر » من الصَّعَر ، وهو في الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته ، ويشبه به الإنسان المتكبر الذي يميل بخدِّه ، ويُعرض عن الناس تكبّراً ، ونسمع في العامية يقولون للمتكبر (فلان ماشي لاوي رقبته) .

فقول الله تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] واختيار

---

(١) الحنفية والمالكية متفقون على أن قصر الصلاة الرباعية في السفر سنة مؤكدة ، ولكنهم مختلفون في الجزاء المترتب على تركه ، فالحنفية يقولون : من أتم يكون مسيئاً بترك الواجب ، وهو إن كان لا يعذب على تركه بالنار ، ولكنه يُحرم من شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة . أما المالكية فيقولون : إذا تركه المسافر فلا يُؤاخذ على تركه ، ولكنه يحرم من ثواب السنة المؤكدة فقط ، ولا يحرم من شفاعة النبي » [الفقه على المذاهب الأربعة ٤٧١/١] دار إحياء التراث العربي .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٨/٢) وابن حبان (٥٤٥ ، ٩١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

هذا التشبيه بالذات كأن الحق سبحانه يُنبِّهنا أن التكبُّر وتصعير الخدّ داء ، فهذا داء جسدي ، وهذا داء خلقي . وقد تنبه الشاعر إلى هذا المعنى فقال :

فَدَعْ كلَّ طاغيةٍ للزَّمانِ   فإنَّ الزمانَ يُقيم الصَّعَر

يعني : إذا لم يستطع أبناء الزمان تقويم صعر المتكبر ، فدعه للزمان فهو جدير بتقويمه ، وكثيراً ما نرى نماذج لأناس تكبروا وتجبروا ، وهم الآن لا يستطيع الواحد منهم قياماً أو قعوداً ، بل لا يستطيع أنْ يذب الطير عن وجهه .

والإنسان عادة لا يتكبر إلا إذا شعر في نفسه بميزة عن الآخرين ، بدليل أنه إذا رأى مَنْ هو أعلى منه انكسر وتواضع وقوَّم من صعره . ومثَّلنا لذلك بـ (فتوة) الحارة الذي يجلس على القهوة مثلاً واضعاً قدماً على قدم ، غير مُبَال بأحد ، فإذا دخل عليه (فتوة) آخر أقوى منه نجده تلقائياً يعتدل في جلسته .

وهذه المسألة تفسر لنا الحكمة التي تقول (اتق شر من أحسنت إليه) لماذا ؟ لأن الذي أحسنتَ إليه مرتْ به فترة كان ضعيفاً محتاجاً وأنت قوي فأحسنتَ إليه . وقدَّمْتَ له المعروف الذي قوَّم حياته فأصبح لك يدٌ عليه ، وكلما رآك ذكَّرته بفترة ضعفه ، ثم إن الأيام دُوَل تدور بين الخلْق . والضعيف يصبح قوياً ويحب أنْ يُعلي نفسه بين معارفه ، لكنه لا بُدَّ أن يتواضع حينما يرى مَنْ أحسن إليه . وكأن وجود مَنْ أحسن إليه هو العقبة أمام علُوِّه وكبريائه ؛ لذلك قيل : (اتق شر من أحسنت إليه) .

ثم إن الذي يتكبر ينبغي أنْ يتكبَّر بشيء ذاتي فيه لا بشيء موهوب له ، وإذا رأيتَ في نفسك ميزة عن الآخرين فانظر فيما تميزوا هم به عليك . وساعة تنظر إلى الخلْق والخالق تجد كل مخلوق لله جميلاً .

لذلك تروى قصة الجارية التى كانت تداعب سيدتها ، وهى تزينها وتدعو لها بفارس الأحلام ابن الحلال ، فقالت سيدتها : لكنى مشفقة عليك ؛ لأنك سوداء لن ينظر أحد إليك ، فقالت الجارية : يا سيدتى ، اذكرى أن حُسْنك لا يظهر لأعين الناس إلا إذا رأوا قُبْحي - فالذى تراه أنت قبيحاً هو فى ذاته جميل ، لأنه يبدى جمال الله تعالى فى طلاقة القدرة - ثم قالت : يا هذه ، لا تغضبى الله بشىء من هذا ، أتعيبين النقش ، أم تعيبين النقاش ؟ ولو أدركت ما فىّ من أمانة التناول لك فى كل ما أكلف به وعدم أمانتك فيما يكلفك به أبوك لعلمت فى أى شىء أنا جميلة .

ويقول الشاعر فى هذا المعنى :

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبيضٌ ... والشَّعْر مثْل الليْل مُسْوَدٌّ
ضِدَّان لما اسْتُجْمِعَا حَسُنَا ... والضِّدُّ يُظْهِر حُسْنَهُ الضِّدُّ

والله تعالى يُعلِّمنا هذا الدرس فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فإذا رأيتَ إنساناً دونك فى شىء ففتش فى نفسك ، وانظر ، فلا بُدَّ أنه متميز عليك فى شىء آخر ، وبذلك يعتدل الميزان .

فالله تعالى وزَّع المواهب بين الخَلْق جميعاً ، ولم يحاب منهم أحداً على أحد ، وكما قلنا : مجموع مواهب كل إنسان يساوى مجموع مواهب الآخر .

وسبق أن ذكرنا أن رجلاً قال للقمان : لقد عرفناك عبداً أسود غليظ الشفاه ، تخدم فلاناً وترعى الغنم ، فقال لقمان : نعم ، لكنى

أحمل قلباً أبيض ، ويخرج من بين شفتيّ الغليظتين الكلام العذب الرقيق[1] .

ويكفي لقمان فخراً أن الله تعالى ذكر كلامه ، وحكاه في قرآنه وجعله خالداً يُتْلى ويُتعبَّد به ، ويحفظه الله بحفظه لقرآنه .

ولنا ملْحظ في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] فكلمة للناس هنا لها مدخل ، وكأن الله تعالى يقول لمن يُصعِّر خده : لا تَدَعْ الناس إلى العصيان والتمرد على أقدار الله بتكبُّرك عليهم وإظهار مزاياك وستْر مزاياهم ، فقد تصادف قليلَ الإيمان الذى يتمرد على الله ويعترض على قدره فيه حينما يراك متكبرا متعاليا وهو حقير متواضع ، فإنْ كنت محترف صَعَر و (كييف) تكبُّر ، فليكنْ ذلك بينك وبين نفسك ، كأن تقف أمام المرآة مثلاً وتفعل ما يحلو لك مما يُشْبع عندك هذا الداء .

فكأن كلمة ﴿ لِلنَّاسِ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] تعنى : أن الله تعالى يريد أنْ يمنع رؤية الناس لك على هذا الحال ؛ لأنك قد تفتن الضعاف في دينهم وفي رضاهم عن ربهم .

ثم يقول لقمان : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. ﴿١٨﴾ ﴾ [لقمان] المرح هو الاختيال والتبختر ، فربُّكَ لا يمنعك أنْ تمشي في الأرض ، لكن يمنعك أنْ تمشي مشْية المتعالي على الناس ، المختال بنفسه ، والله تعالى يأمرنا : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك]

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٧/٥٢٤٧) : « قال لرجل ينظر إليه : إن كنت تراني غليظ الشفتين فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق ، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض » .

فالمشى فى الأرض مطلوب ، لكن بهيئة خاصة تمشى مَشْياً سوياً معتدلاً ، فعمر - رضى الله عنه - رأى رجلاً يسير متماوتاً فنهره ، وقال : ما هذا التماوت يا هذا ، وقد وهبك الله عافية ، دَعْها لشيخوختك[1] .

ورأى رجلاً يمشى مشية الشطار[2] - يعنى : قُطَّاع الطرق - فنهاه عن القفز أو الجرى والإسراع فى المشى .

إذن : المطلوب فى المشى هيئة الاعتدال ، لذلك سيأتى فى قول لقمان ﴿ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ .. (١٩) ﴾ [لقمان] يعنى : لا تمشِ مشية المتهالك المتماوت ، ولا تقفز قفز أهل الشر وقُطَّاع الطريق .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) ﴾ [لقمان] المختال : هو الذى وجد له مزية عند الناس ، والفخور الذى يجد مزية فى نفسه ، والله تعالى لا يحب هذا ولا ذاك ؛ لأنه سبحانه يريد أنْ يحكم الناس بمبدأ المساواة ليعلم الناس أنه تعالى ربُّ الجميع ، وهو سبحانه المتكبِّر وحده فى الكون ، وإذا كان الكبرياء لله وحده فهذا يحمينا أنْ يتكبَّر علينا غيره ، على حدِّ قول الناظم :

والسُّجُود الذِى تَجْتَوِيه   من أُلُوفِ السُّجُودِ فيه نَجَاةُ

فسجودنا جميعاً للإله الحق يحمينا أن نسجد لكل طاغية ولكل

---

(١) أورده الغزالى فى الإحياء (٢٩٦/٣) أنه يُروى عن عمر بن الخطاب « أنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته ، فقال : يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ، ليس الخشوع فى الرقاب إنما الخشوع فى القلوب » .

(٢) الشطار : جمع شاطر ، وهو الذى أعيا أهله ومؤدبه خبثاً . قال أبو إسحاق : قول الناس فلان شاطر معناه أنه أخذ فى نحو غير الاستواء ، ولذلك قيل له شاطر لأنه تباعد عن الاستواء . [لسان العرب - مادة : شطر] .

متكبر متجبر ، فكان كبرياء الحق ـ تبارك وتعالى ـ فى صالح العباد .

ثم يقول الحق سبحانه على لسان لقمان عليه السلام :

﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

القصد : هو الإقبال على الحدث ، إقبالاً لا نقيضَ فيه لطرفين ، يعنى : توسطاً واعتدالاً ، هذا فى المشى ﴿ **واغضض من صوتك ..** ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] أى : اخفضه وحَسْبك من الأداء ما بلغ الأذن .

لكن ، لماذا جمع السياق القرآنى بين المشى والصوت ؟ قالوا : لأن للإنسان مطلوبات فى الحياة ، هذه المطلوبات يصل إليها ، إما بالمشى ـ فأنا لا أمشى إلى مكان إلا إذا كان لى فيه مصلحة وغرض ـ وإما بالصوت فإذا لم أستطع المشى إليه ناديته بصوتى .

إذن : إما تذهب إلى مطلوبك ، أو أنْ تستدعيه إليك . والقصد أى التوسط فى الأمر مطلوب فى كل شىء ؛ لأن كل شىء له طرفان لا بُدَّ أن يكون فى أحدهما مبالغة ، وفى الآخر تقصير ؛ لذلك قالوا : كلا طرفي قصد الأمور ذميم .

ثم يقول سبحانه مُشبِّهاً الصوت المرتفع بصوت الحمار : ﴿ **إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحميرِ** ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان] والبعض يفهم هذه الآية فهماً يظلم فيه الحمير ، وعادة ما يتهم البشرُ الحميرَ بالغباء وبالذلة ، لذلك يقول الشاعر :

وَلاَ يُقيم على ضَيْمٍ يُرَادُ به   إلاَّ الأذلاَّنِ عَيْرُ الحيِّ والوَتَدُ